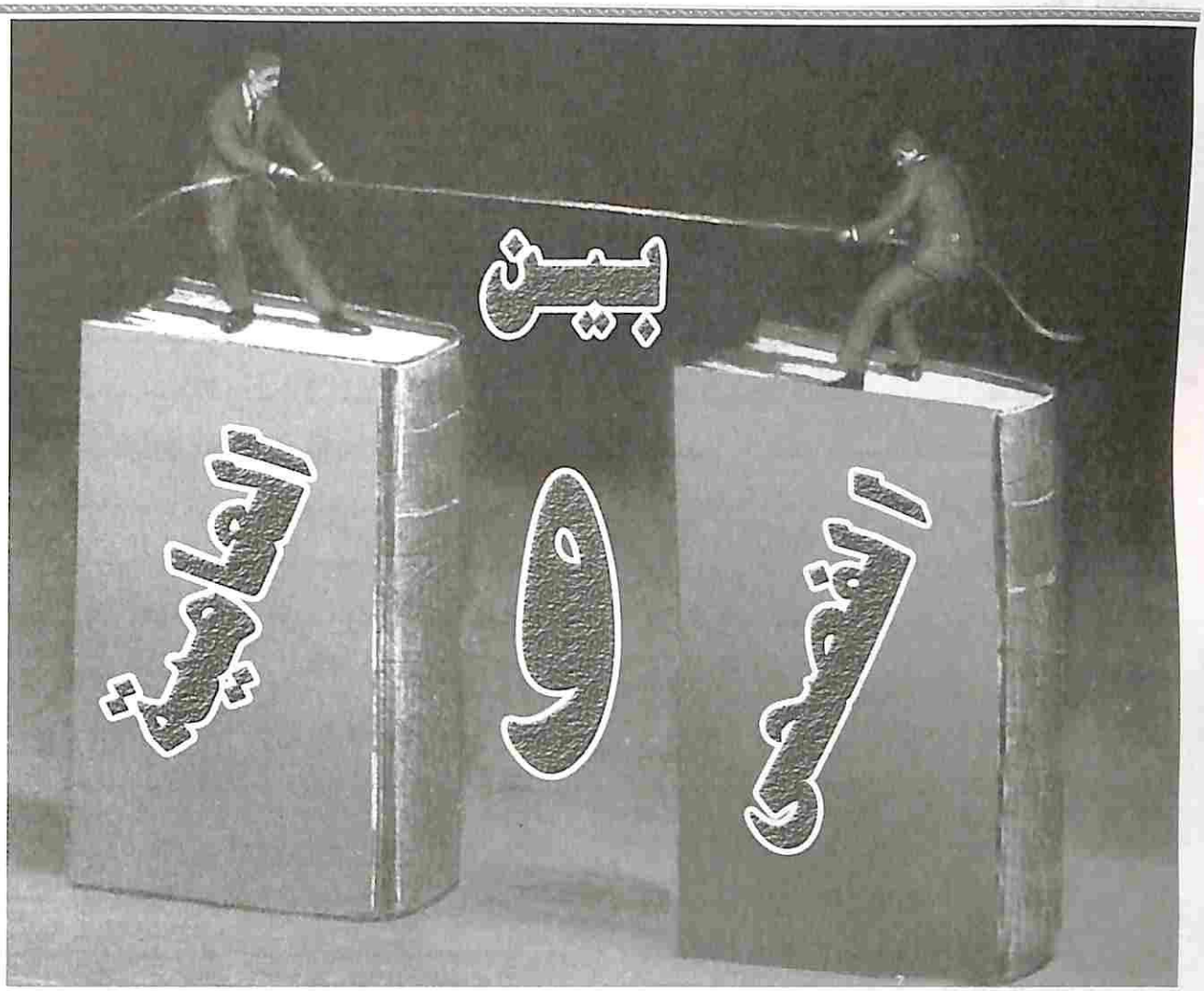

بقلم: د. بتول حاج احمد
السودان

الفصحى هي لغة القرآن ولغة العلم بمعناه الواسع في شتى ميادينه، وهي لغة الأدب من شعر ونثر بأنواعه من مسرحية و قصة ورواية وخطبة ورسالة ومقالة وغيرها، وهي لغة الإعلام من صحافة وإذاعة ومرئي وغيرها. أما العامية فهي لغة الحديث اليومي، وتستخدم في الشؤون العامة للحياة، وهي لا تفرض فرضاً بل سنتها التطور والتبدل، وتختلف في كل عصر عن الحالة التي كانت عليها في العصر السابق له، وتختلف باختلاف الشعوب العربية، وفي الشعب الواحد باختلاف مناطقه، فعامية العراق لا يفهمها المصريون، وعامية القاهرة تختلف عن عامية غيرها من المناطق في مصر، وعامية الشبان تختلف عن عامية الشيوخ وهكذا.

أهمية الفصحى وخصوصيتها

أولاً: اللغة العربية الفصحى جزء من حقيقة الإسلام إذ هي لغة كتابه ولسان دعوته، ولا يوجد دين حملته لغته التي أنزل بها، ثم بقيت محافظة على قوتها وجدتها ووحدتها إلاّ دين الإسلام، أما سائر الأديان فلا تقرأ لغتها الأصلية إلاّ في لغة البلد الذي ظهرت فيه، ومن ثم فإن المسلمين الذين يقدرون بنحو مليار ومئتي مليون في أنحاء المعمورة يقرؤون القرآن باللغة التي نزل بها، وبفضله صارت اللغة العربية لغة عالمية، ولولاه لأمست لغة أثرية كاللاتينية والسنسكريتية وغيرهما، ولسادت اللهجات العربية المختلفة في نواحي الأرض العربية، وازدادت بعداً عن الأصل.

إن أقصى عمر اللغات الحية المعاصرة لا يتعدى قرنين تقريباً فهي دائمة التطور والتغير لأنها لم ترتبط بكتاب كريم[١]. قال تعالى:﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢]. وقال :﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [٣]، وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ القرآن ومن ثم اللغة العربية فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٤]. وقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[٥].

ثانياً: حفظت اللغة العربية الفصحى التراث الفكري الضخم للعرب والمسلمين، حيث يقرأ العرب اليوم شعر امرئ القيس وأبي تمام والمتنبي وغيرهم برغم القرون الطوال التي تفصل بينهم، كما أن اللغة الفصحى هي لغة التراث الحضاري للعرب والمسلمين في شتى مناحي المعرفة، فهي بين اللغات السامية أهم لغة حضارة. يقول فيلاسبارا أحد الكتاب الغربيين :« إن اللغة العربية من أغنى لغات العالم، بل هي أرقى من لغات أوربا لتضمنها كل أدوات التعبير في أصولها في حين أن الفرنسية والإنجليزية و الإيطالية وسواها قد تحدرت من لغات ميتة، ولا تزال حتى الآن تعالج رمم تلك اللغات لتأخذ من دمائها ما تحتاج إليه»[٦].

الصراع بين الفصحى والعامية

برزت دعوة إلى تسليط الضوء على العامية، والعناية بها وإحلالها محل الفصحى. كان ولكوكس أول من افتتح هذه الدعوة عام ثلاثة وتسعين وثمانمئة وألف في خطابه المشهور الذي دعا فيه إلى نشر العامية والتأليف بها يقول:«إن من جملة العوامل في فقد قوة الاختراع عند المصريين استبقاءهم اللغة العربية الفصحى، لذلك لا بد من إغفالها واستبدالها باللغة العامية[٧] اقتداءً بالأمم الأخرى وخاصة الأمة الإنجليزية التي استفادت استفادة كبيرة بإغفال اللغة اللاتينية التي كانت لغة الكتابة عندها واستبدالها باللغة الإنجليزية الحاضرة»[٨]. وسعى سبيتا الألماني الذي كان مديراً لدار الكتب المصرية عام اثنين وتسعمئة وألف، سعى أن يجعل للعامية تراثاً فألف كتاب «قواعد اللغة العامية في مصر» وألف ميخائيل الصباغ «الرسالة التامة في كلام العامة»، كما ألف المستشرقون عن عاميات عدد من الأقطار العربية كعامية مصر، ونشروا الأدب المؤلف بالعامية وجمعوه، وقاموا بتعريب بعض التراث العالمي بالعامية.

نتائج الدعوة إلى العامية

ونتج عن هذه الدعوة بعض المظاهر:

(١) رفع شعار الكتابة بالعامية في المسرحية والقصة والشعر وغير ذلك من الفنون وهذا شعار خطير كما سنرى. ومن الأدباء من رفع هذا الشعار كجبران خليل جبران الذي يقول: «لكم لغتكم ولي لغتي، لكم منها القواميس والمعجمات والمطولات، ولي منها ما غربلته الأذن وحفظته الذاكرة من كلام مألوف مأنوس تتداوله ألسنة الناس في أفراحهم وأحزانهم»[٩].

(٢) طالب قوم على رأسهم سعيد عقل بتغيير الحرف العربي بإحلال الحرف اللاتيني مكانه، فأصدر عام واحد وستين وتسعمئة وألف كتاباً بالحرف اللاتيني باسم (يارا شعر) وهو مطبوع بالأحرف الأبجدية اللاتينية مضافاً إليها سبعة رموز جديدة وأحد عشر حرفاً لاتينياً زيد عليها إشارات خاصة حتى تؤدي أصواتاً مكان الحرفين اللذين يؤديان باللهجة اللاتينية صوتاً واحداً. يقول:« علينا أن نترك لغة الكتب لنأخذ لغة الحياة»[١٠].

(٣) الدعوة إلى العامية باسم التيسير في النحو وغيره، وممن خدموا هذه الدعوة سلامة موسى في كتابه (البلاغة العصرية واللغة العربية)، وأنيس فريحة في كتابه (نحو عربية ميسرة). وكان أنيس فريحة قد كتب موضوعاً مشهوراً في مجلة الأبحاث عام خمسة وخمسين وتسعمئة وألف جاء فيه: « هذا

الصرف وهذا النحو: أما لهذا الليل من آخر؟!»
وتمنى في هذا المقال أن يرى حاكماً عسكرياً يفرض العامية على العرب»[١١].

(٤) الزعم بأن الفصحى لغة صعبة وغير طيعة، فالإنجليزي ينطق بلغته في سنة بينما العربي لا ينطق بها إلا في أربع، إذ في العربية الشكل بالعلامات الأربع، وللجمع والمصادر أوزان لا تحصى، وثمة مذكر ومؤنث ومفرد ومثنى وجمع، وهضم هذا كله يستهلك عمراً كاملاً.

(٥) الزعم أن الفصحى عاجزة عن مجاراة العصر ولهذا عجزت عن تقديم مصطلحات الحضارة.

الرد على دعاة العامية

ونرد على هذه المظاهر على النحو الآتي:

نؤكد في البدء أن أهم دافع لهذه المظاهر هو العداء للفصحى لمزاياها كلغة دين، ولغة علم وفكر، ولغة توحيد للناطقين بها، يقول أحمد شوقي:

ويجمعنا إذا اختلفت بلاد
بيان غير مختلف ونطق[١٢]

ومنشأ العداء أصله الصهيونيون والصليبيون المستعمرون الذين لم يستطيعوا أن ينالوا من القرآن الكريم، فاستهدفوا لغته متجاهلين أنها هي أيضاً مكفولة الحفظ من الله تعالى إلى أن تقوم الساعة.

جعل المستعمرون التعليم في الدول العربية المستعمَرَة بلغة المستعمِر، ورفعوا شعار احتقار اللغة العربية والقائمين عليها. حمل رئيس وزراء بريطانيا قلادستون المصحف في مجلس العموم البريطاني، وأشار بأن الإنجليز لا يستطيعون البقاء طالما يوجد هذا الكتاب. وكانت الخطة في تحقيق ذلك من خلال القضاء على اللغة الفصحى وإحلال العاميات مكانها[١٣].

يقول العقاد عن دعاوي الهدم : «هو هدم عن سوء نية وخبث طوية بغرض تقويض معالم اللغة وراء كلمات التقدم والتجديد. إن هدم الفن الجميل لا يصدر إلاّ عن عجز أو إصرار على الهدم، ولا خير في دعوة يتولاها العجز العقيم والضغينة النكراء»[١٤]. أما عبدالحميد الرافعي فعبر عن ذلك شعراً قائلاً:

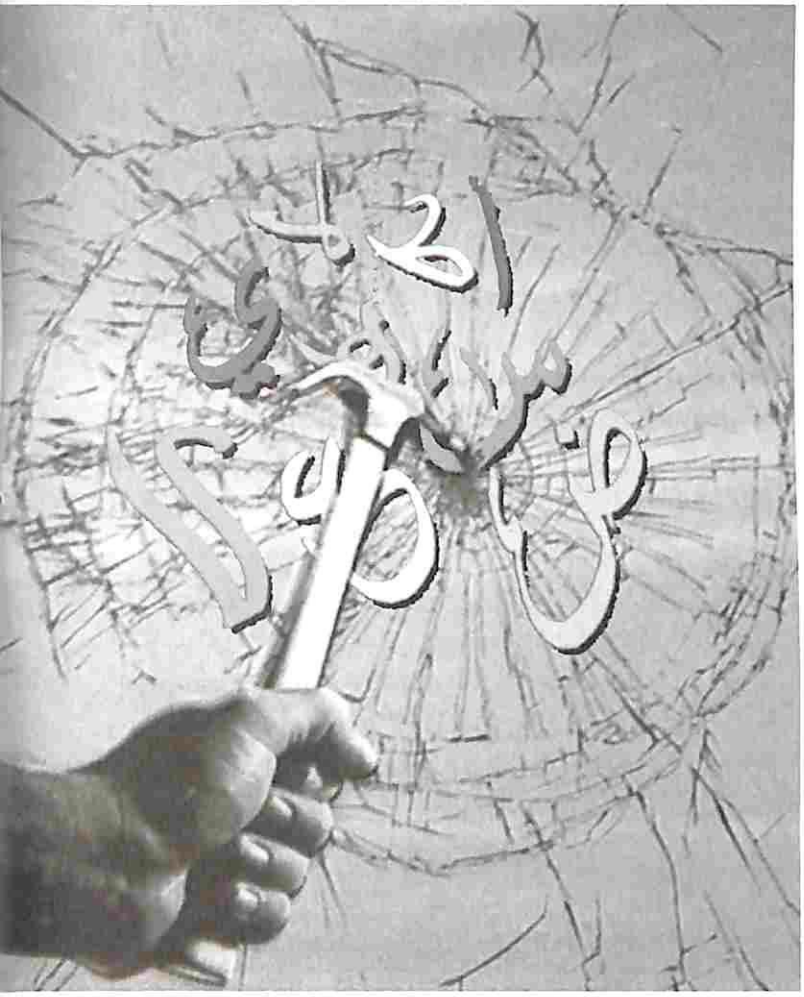

لغة بفضل مجالها وجلالها
شهدت شواهد محكم الفرقانِ
لغة إذا أدركت سحر بيانها
أدركت معنى السحر في الأجفانِ
قل للألى جهلوا مكانتها وقد
كادوا لها في السر والإعلانِ
عاديتمُ ما تجهلون ولم تُعَبْ
قدر الورود كراهة الجعلانِ
والله يأبى أن تهان فبشروا
من رام ذلتها بكل هوان[١٥]

في الرد على المظهر الأول نورد ما رد به الدكتور علي عبدالواحد وافي إذ يقول: «إن اصطناع العامية في الآداب والعلوم والكتابة من شأنه أن يحول عاجلاً أو آجلاً بين الأجيال والانتفاع بالتراث العربي المدون بالفصحى، إذ تصبح هذه اللغة غير مفهومة إلاّ لطائفة قليلة من خاصة الناس، واللغة العامية لغة فقيرة كل الفقر في مفرداتها ولا تشتمل إلاّ على المفردات

الضرورية للحديث العادي، وهي مضطربة كل الاضطراب في قواعدها وأساليبها ومعاني ألفاظها وغير ذلك، وأداة هذا شأنها لا تقوى مطلقاً على التعبير عن المعاني الدقيقة ولا عن حقائق العلوم والآداب. واللغة العامية تختلف باختلاف الشعوب العربية، وتختلف في الشعب الواحد باختلاف مناطقه)[١٦]. ومما يدعم هذا القول أن مجلات «الدبور» البيروتية، و «المضحك المبكي» الدمشقية، و «الفكاهة» و«البعكوكة» المصريتين كان يغلب عليها العامية و يقرؤها أشباه الأميين الذين تعالج هذه المجلات مشاكلهم ولكن لم يكن العامي المصري يقرأ المجلة البيروتية أو الدمشقية والعكس صحيح[١٧].

وورد عن الأديب علي أحمد باكثير قوله: « **إن اللغة العربية الفصحى هي وحدها القادرة على أن تمد الكاتب بالإمكانات الواسعة للتصرف وإيجاد الألوان المنوعة من التعبير الذي يناسب الشخصيات التي يرسمها، و إن مثل اللغة الفصحى كمثل الماء الصافي الذي يمكن تلوينه بأي لون. أما العامية فمثلها كمثل الماء الملون الذي لا يمكن أن يظهر أي لون جديد على حقيقته**»[١٨]. **ويقول الشاعر خليل مطران : « كيف يمكن أن يقال إن لغتنا لا تكفي الأديب وهي من حيث مفرداتها وآدابها من أغنى لغات العالم**»[١٩].

وفي الرد على المظهر الثاني نقول: إن كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية تضييع لها بتضييع كثير من حروفها الهجائية مما لا يوجد في اللغة اللاتينية مثل حرف الثاء والحاء والذال والصاد والضاد والطاء والظاء وغير ذلك.

علي احمد باكثير

يقول سير إدوارد بنسون مدير مدرسة اللغات الشرقية في لندن حول تغيير حروف اللغة العربية إلى اللاتينية: «حذار من هذا، لأن الحروف العربية هي حروف لغة القرآن وإذا مسستم الحروف العربية مسستم القرآن، بل هدمتم صرح وحدة الإسلام. إن الإسلام أساسه اللغة العربية فإذا ضاعت ضاع الإسلام». وقال آخر: إن الخط العربي حفظ إلى الآن وحدة اللغة العربية وإذا تغير الخط العربي بالخط اللاتيني أصبحت النتيجة خطيرة للغاية فكيف يكون مصير الكنوز العظيمة التي خلفتها الآداب الإسلامية وكلها مدونة بالخط العربي؟[٢٠]. وتجربة تركيا في هذا الصدد ماثلة للعيان فقد كتبت لغتها بالحرف اللاتيني منذ عام ثلاثين وتسعمئة وألف، فقطعت نفسها قطعاً تاماً عن التراث الإسلامي بعد أن كانت مصدراً في نهضة التراث، وأصبحت الآن لا تستطيع أن تصل إليه إلاّ عن طريق القواميس والترجمة.

وفي الرد على المظهر الثالث نذكر أن هناك من طالب بإعدام نون النسوة وتاء التأنيث كأنهم يريدون رطانة لا تفرق بين العاقل وغير العاقل، وبين المذكر والمؤنث، وبين المتكلم والمخاطب حاضراً أو غائباً، وبين المفرد والمثنى والجمع. إن إبراز اللغة العربية للفروق الموجودة خارج الذات يعد من عبقرية اللغة الفصحى، فإن قيل: إن في ذلك مشقة وعناء، فالجواب: إن هذه طبيعة العلم وفي الجهل راحة أي راحة [٢١]. والتيسير مطلوب إذا لم يضيع واجباً، وإلاّ كان إخلالاً. ولو كان التيسير هو المقياس لاستغنينا عن كثير من الضمائر والأدوات وحركات الإعراب ومترادفات اللغة. ولا مانع من بذل الجهود في تجويد طرق تدريس اللغة العربية وتطويرها بشرط الحفاظ على البنية الأصلية للفصحى.

وفي الرد على المظهر الرابع نقول: إن شبهة صعوبة اللغة العربية وكثرة الشواذ فيها مردودة، لأن هناك لغات أخرى كالألمانية والفرنسية قد تفوق اللغة العربية في ذلك، ومع ذلك يقبل عليها الدارسون من العرب، ويكابدون صعوبة كثرة الشواذ فيها. ولعله من المفيد أن نورد بعض المقترحات التي أشار إليها الدكتور رمضان عبدالتواب في إطار مشكلات تعليم اللغة

خليل مطران

العربية الفصحى مما من شأنه أن يحبب فيها النشء ويصرفهم عن اختيار العامية، ومنها[٢٢]:

(١) الاهتمام بإعداد مدرس العربية، فهو يمثل حجر الزاوية في هذه المشكلة وخاصة معلم المرحلة الابتدائية.

(٢) ليس تعلم اللغة هو حفظ المصطلحات النحوية التي يرددها الطالب ثم ينساها عقب الامتحان، ولا يبقى في ذهنه إلاّ التندر بصعوبة اللغة العربية، ولا يعني هذا إهمال درس القواعد، ولكن ألاّ نجعله في المقام الأول. خذ لغة التخاطب وانظر كيف يتعلمها الطفل؟ الذي يحدث هو أننا نتكلم والطفل يحاكي ويقلد ويكتمل نضج لغة الخطاب عنده في وقت يسير دون أن يعلم شيئاً عن قواعدها. والعربية الفصحى لا يتكلمها الناس في كل وقت حول التلميذ، ولكنَّ هناك طريقاً آخر يقوم مقام السماع وهو القراءة .. قراءة النصوص الأدبية القديمة قراءة واعية صابرة مع حفظ الكثير جداً من هذه النصوص الجيدة وعلى رأسها القرآن الكريم.

وإذا كنا أمام الفصحى لا ننعم بالوسيلة الأولى وهي الاستماع، وأكثر ما نسمعه عامي أو فصيح ملحون

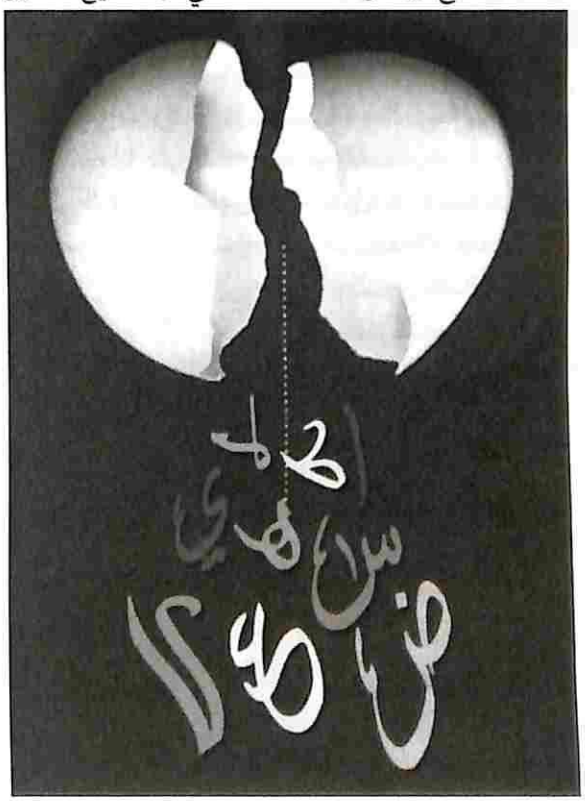

أو مليء بالخطأ أو ركيك العبارة، فإن أمامنا فرصة القراءة الواعية للنصوص الجيدة. ويلاحظ طغيان العاميات على الإذاعات العربية ومحطات التلفاز وبذلك تخسر الفصحى إحدى قلاعها الحصينة وتفوت الفرصة الذهبية لتعلم اللغة عن طريق السماع. كان الأمل أن يدير الطالب مفتاح المذياع فلا يسمع إلاّ الفصحى في النشرات والتعليقات والبرامج والتمثيليات والأغاني والسهرات ولكن الذي يحدث هو طغيان اللهجات المحلية، وإذا سألتهم يقولون: إن الجمهور يريد البث باللغة العامية، وينفر من البرامج الفصيحة! مع كون برامج الإعلام لا بد أن تكون موجِّهة لا موجَّهة، ولا يصح أن تنسى وظيفتها الأصلية وتنساق خلف تحقيق الرغبات الجامحة. قد يقال: إن نسبة كبيرة من الجمهور أميون لا يعرفون الفصحى، إن هذا الجمهور نفسه يستمع إلى خطبة الجمعة بالفصحى فيفهمها ويعيها ولا ينفر منها.

(٣) ويلاحظ أن الكتاب المدرسي يطبع بلا ضبط بالشكل أحياناً، وهذا معوق كبير عن القراءة يزيد من كراهية الطفل للتعليم، فلماذا لانقضي على هذه الظاهرة بتشكيل جميع الكتب المدرسية تشكيلاً كاملاً ، فيتعود التلميذ على النطق السليم لأبنية الكلام وهو ما لا يضبط بقاعدة في كثير من الأحيان.

وفي الرد على المظهر الخامس نقول: إن مصطلحات الحضارة اختراعات واكتشافات تتم في الغرب فيسمونها، ولم يعجز العرب في وضع أسماء عربية لهذه المخترعات. يقول الدكتور حسن ظاظا: «وتتم هذه العملية عن طريق الهيئات والمجامع اللغوية غير أن بعضها يصادف القبول فيذيع ويصبح من الكلمات المألوفة وقد يصل الشيوع بالدلالة الجديدة حداً تنسى معه الدلالة القديمة نسياناً تاماً فمن منا إذا سمع كلمة السيارة يخطر في ذهنه صورة القافلة في الصحراء ؟ ومع ذلك فما نزال نفضل على الهاتف كلمة التليفون على حين ظل التلغراف بين إقدام وإحجام وفقد المعركة أو كاد أمام الكلمات المولدة (برق)، (برقية)، (أبرق إليه)»[٢٣].

ويواصل الدكتور حسن ظاظا قائلا:« أما إدخال ألفاظ أجنبية للتشدق والتفرنج فذلك إسهام في إضعاف اللغة العربية، والذين يفعلون ذلك يبدأ المرض في نفوسهم

بشعور وهمي بالانتماء الفكري إلى مجتمع غير عربي، وهؤلاء لا وزن لهم في الدخيل الذي يستعملونه بدل العربي المساوي له في المعنى المتفوق عليه في الأصالة مع جودة الجرس وانسجام الرنين. فالذي يقول (أوكي) بدلاً من (نعم)، والذي يقول (باي باي) بدل (إلى اللقاء) لا يفعل ذلك إلاّ لأنه مصاب بعقدة الضعة، يجد نفسه حقيراً إذا نطق بالعربية، ويظن أنه إذا نطق بغيرها من كلام من يعتبرهم عظماء وسادة دخل في زمرتهم»[٢٤].

والنظرة المتفائلة ترى أن هذه الدعوة إلى العامية قد رجحت كفة الفصحى في جوانب عدة منها:

(أ) أصبح الرأي العام متجهاً إلى التمسك بالفصحى بسبب نمو الوعي وانتشار التعليم.

(ب) تسويد اللغة الفصحى في المؤتمرات التي تعقد بين الدول العربية.

(جـ) تعريب التعليم الجامعي في أغلب جامعات الوطن العربي.

(د) لم يستطع دعاة العامية أن يدافعوا عن حركتهم إلاّ باللغة الفصحى يقول مصطفى صادق الرافعي:« لم يستطيعوا أن يستخدموا في معركتهم ذلك السلاح المفلول فلجؤوا إلى الفصحى في ذيادهم عن العامية المتهالكة»[٢٥].

(هـ) تترقى اللغة العامية إلى اللغة الفصحى، وتقترب منها مع الزمان فتنال من فضلها أكثر من أن تكتسب اللغة الفصحى من العامية. ويؤكد ذلك الكتب التي ألفت لتصحيح العامي وإرجاعه إلى الأصل الفصيح كـ (أصول الكلمات العامية) تأليف حسن توفيق العدل، و(مرادف العامي والدخيل) تأليف حسن البدراوي، و (تهذيب الألفاظ العامية) تأليف محمد علي الدسوقي.

(و) يسعى رجل الشارع إذا خاطب المثقفين إلى تهذيب عبارته والدنو بها من الفصحى[٢٦].

(ز) الأدباء الذين نبعوا من العامة ونشؤوا في أوساط شعبية، ولم يدرسوا العربية دراسة منظمة، وإنما اعتمدوا على مطالعاتهم الشخصية صاروا يكتبون وينظمون باللغة الفصحى [٢٧].

المستقبل للفصحى

وكل غيور على ثقة بأن المستقبل للفصحى، وأن بقاءها مضمون حتى في أحلك عصور العامية. لقد كتب جون فيرن أحد الروائيين الغربيين المشهورين[٢٨] قصة خيالية عن قوم شقوا في أعماق الأرض طريقاً إلى جوفها، فلما خرجوا سجلوا أسماءهم باللغة العربية الفصحى، فلما سئل المؤلف في ذلك قال: لأنها لغة المستقبل.

ونختم بمقولة الدكتور حسن ظاظا: «ينبغي أن نقول إحقاقاً للحق: إن جيلاً من أرباب الأدب والصحافة والمسرح ومن العلماء المتعمقين في العربية وتأريخها وآدابها ومن المترجمين والمخلصين والمعلقين والنقاد، قد ضربوا مثلاً للعمل المنظم الذي يفرض الأنس به على أشد القلوب جحوداً، هذا فضلاً عن فوج من الشعراء الذين حركوا القلوب مع حركة العقول على نحو انبثق عنه في نفس القارئ العربي بصورة عفوية تلقائية شعور عميق بأن هذه اللغة الفصحى ما تزال صالحة للحياة والحضارة»[٢٩]. ■

الهوامش:

(١) فصول في فقه العربية – د. رمضان عبدالتواب – ص٤١٥.
(٢) سورة يوسف – الآية ٢ .
(٣) سورة النحل – الآية ١٠٣ .
(٤) سورة الحجر – الآية ٩ .
(٥) سورة القيامة – الآية ١٧.
(٦) الفصحى لغة القرآن – أنور الجندي – ص ٣٠٨.
(٧) الصواب: واستبدال اللغة العامية بها، لأن الباء تلحق المتروك.
(٨) الفصحى لغة القرآن ، أنور الجندي، ص١٢٨.
(٩) جبران خليل جبران – البدائع والطرائف.
(١٠) الفصحى لغة القرآن – أنور الجندي – ص ٢٠٣.
(١١) نفسه – ص٢٠٩.
(١٢) الشوقيات – ص١٢٦.
(١٣) الفصحى لغة القرآن – أنور الجندي – ص ١٦٩.
(١٤) اللغة الشاعرة – العقاد.
(١٥) أبيات عبدالحميد الرافعي.
(١٦) فقه اللغة – علي عبدالواحد وافي – ص١٦٥ .١٦٦.
(١٧) الفصحى لغة القرآن – أنور الجندي – ص ٢٠٤.
(١٨) صفحات مضيئة من تراث الإسلام أنور الجندي – ص٢٦٠.
(١٩) تجديد الشعر عند خليل مطران – سعيد حسين منصور – ص٦٠.
(٢٠) الفصحى لغة القرآن – أنور الجندي – ص ١٧٣.
(٢١) معركة العامية – أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري – ص٥٥.
(٢٢) فصول في فقه العربية – د. رمضان عبدالتواب –ص ٤١٩–٤٢٤.
(٢٣) كلام العرب من قضايا اللغة العربية – د. حسن ظاظا – ص٨٧.
(٢٤) نفسه – ص ٩٠.
(٢٥) الفصحى لغة القرآن – أنور الجندي – ص١٧١.
(٢٦) معركة العامية – أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري – ص٥٥.
(٢٧) نفسه.
(٢٨) صفحات مضيئة من تراث الإسلام – أنور الجندي – ص٦٢.
(٢٩) كلام العرب.. من قضايا اللغة العربية – د. حسن ظاظا – ص ٥.